المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

من مقامات الموعظة عند الموت في البيان النبوي الشريف، دراسة بلاغية، صحيح البخاري أنموذجاً

One of the positions of the sermon upon death in the noble Prophet's statement, a rhetorical study, Sahih Al-Bukhari as a model

بقلم الدكتور

عبد الرحيم إبراهيم عبدالرحيم محمد

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الأول من إصدار سبتمبر ٢٠٢٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

من مقامات الموعظة عند الموت في البيان النبوي الشريف، دراسة بلاغية، صحيح البخاري أنموذجاً

عبد الرحيم إبراهيم عبدالرحيم محمد

قسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا جامعة الأزهر ـ مصر

البريد الإلكتروني: abdelrahimmohamed.4119@azhar.edu.eg

الملخص

يهدف البحث إلى إظهار بلاغة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الموعظة عند الموت، واستشعار تخفيف آلام المخاطب وتسليته، وتبشير الصابر والمحتسب على هذه المصيبة، وتوضيح مبادئ الشريعة تقريرًا أو إنكارًا، وقد ظهرت بلاغة ذلك في اختيار الأوقات المناسبة للموعظة، وعدم الإكثار حتى يستفيد بها السامعون.

وقد كان المنهج الانتقائي هو الأوفق والأنسب لهذه الدراسة؛ وذلك من خلال أمور أبرزها: انتقاء الأحاديث التي تناسب تقسيمات البحث، وتحليلها تحليلًا بلاغيًا يسهم ويبرز مراده ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومدى استدعاء مقتضى الحال له، ومدى وفائه بغرض الكلام، وأثر ذلك على المخاطب والسامع.

وقد تشكل بناء البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ففي المقدمة، جاء البحث مشتملًا على أهم أسباب اختيار الموضوع وأهميته، وأهم أهدافه، والدراسات السابقة فيه، ومنهج البحث، وخطته.

وفي التمهيد وقف البحث على محورين، أولها: تعريف الموعظة ودورها في البيان النبوي الشريف، وثانيها: القيمة البلاغية للموعظة النبوية، وقد جاء المبحث الأول بعنوان: " الموعظة في مقام التنبيه"، والمبحث الثاني: " الموعظة في مقام التبشير"، والمبحث الثالث: " الموعظة في مقام الإنكار"، ثم الخاتمة، كشفت عن أهم نتائج البحث، فمن أهمها: اختيار الأوقات المناسبة للموعظة، وعدم الإكثار حتى يستفيد بها السامعون؛ لأن الإكثار منها يُمِلُّهم وينفرهم، التركيز على بعض الحقائق لترسخ في النفوس، وتثبت في القلوب، وإيضاح بعض المفاهيم والمعاني الغامضة، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة لدى المخاطبين.

الكلمات المفتاحية: مقامات، الموعظة، الموت، صحيح البخاري.

One of the positions of the sermon upon death in the noble Prophet's statement, a rhetorical study, Sahih Al-Bukhari as a model

Abdul Rahim Ibrahim Abdul Rahim Muhammad
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Qena, Al-Azhar University, Egypt.
Email: abdelrahimmohamed.4119@azhar.edu.eg

Abstract

The research aims to show the eloquence of the Prophet - may God bless him and grant him peace - in his sermon upon death, and feel the relief of the addressee's pain and comfort, and give glad tidings to the patient and those who seek reward for this calamity, and to clarify the principles of Sharia law, whether confirming or denying it. The eloquence of this appeared in choosing the appropriate times for the sermon, and not going too much until... The listeners benefit from it.

The eclectic approach was the most appropriate and suitable for this study. This is done through things, the most prominent of which are: selecting hadiths that suit the divisions of the research, and analyzing them in a rhetorical manner that contributes to and highlights what he intended - may God bless him and grant him peace - and the extent to which the situation calls for him, the extent to which he fulfills the purpose of the speech, and the impact of that on the addressee and the listener.

The structure of the research consisted of an introduction, a preface, three sections, and a conclusion. In the introduction, the research included the most important reasons for choosing the topic and its importance, its most important objectives, previous studies in it, the research methodology, and its plan.

In the introduction, the research focused on two axes, the first: defining the sermon and its role in the noble prophetic statement, and the second: the rhetorical value of the prophetic sermon. The first topic was entitled: "The sermon in the position of warning," the second topic: "The sermon in the position of preaching," and the third topic: "Sermony in a position of denial," then the conclusion, revealed the most important results of the research, the most important of which are: choosing the appropriate times for the sermon, and not repeating it in large quantities so that the listeners can benefit from it; Because too much of it bores them and alienates them. Focusing on some facts to take root in souls and remain in hearts, clarify some ambiguous concepts and meanings, and correct some misconceptions among those being addressed.

Keywords: Maqamat, sermon, death, Sahih Al-Bukhari.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم أجمعين، سيدنا محمد وعلى أله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فإن أحاديث رسولنا ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد حوت صنوف البلاغة، وأساطير البيان، وعبرت أدق تعبير عن أركان الإيمان وشرائع الدين.

فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما قال الجاحظ: (ت: ٢٥٥هـ): " لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته..." [١].

وهذا الجمال الفني في بلاغته ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنما يرجع إلى سموه الروحي واتصاله بالملأ الأعلى، قال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)[٢].

والبلاغة النبوية تشتمل على ترغيب الناس في الخير، وإبعادهم عن الشر، وتحملهم الابتلاءات والمصائب، وعدم الزجر والسخط حال المصيبة، ومساعدتهم في إرضاء خالقهم، والتذكير بعطاياه وعظيم ثوابه تعالى ولا سيما عند فقد عزيز أو محبوب.

وقد كانت البلاغة النبوية ــ ولا زالت وستظل ــ محط الدارسين على اختلاف أذواقهم ينهلون من نبعها ويذوبون في رياضها؛ لذا قد تشوقت إلى أن يمن

١- البيان والتبيين لعمرو بن بحر بن محبوب الشهير بالجاحظ (١٣/٢)، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت (١٤٢٣هـ).

٢- سورة النجم، الآيتان (٣، ٤).

الله تعالى عليَّ بمدارسة كلام رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى هُديت إلى اختيار: "**من مقامات الموعظة عند الموت في البيان النبوي الشريف، دراسة بلاغية، صحيح البخاري أنموذجًا**"؛ وذلك لما لأمتنا وعصرنا إلى هذا الموضوع من حاجة ماسة ولا سيما، وقد كثر الموت من الحوادث وتفشي الأمراض وغيرها، فأصبح الناس يحتجون إلى هذه المواعظ البيانية؛ حتى تؤوب الأمة إلى رشدها، وتفيق من غفلتها، ومن هنا ظهرت أهمية هذا الموضوع.

ومن أهم أهداف هذا البحث: إظهار بلاغته ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الموعظة عند الموت، واستشعار تخفيف آلام المخاطب وتسليته، وتبشير الصابر والمحتسب على هذه المصيبة، وتوضيح مبادئ الشريعة تقريرًا أو إنكارًا ... إلخ، وقد ظهرت بلاغة ذلك في اختيار الأوقات المناسبة للموعظة، وعدم الإكثار حتى يستفيد بها السامعون.

الدراسات السابقة:

وقد سبقت هذه الدراسة بدراسات كثيرة، تهتم بالنصح والتذكير بالعواقب، منها:

- "الموعظة في القصص القرآني دراسة موضوعية" رسالة (ماجستير)، إعداد الطالبة: مرفت محمد أحمد حماد، إشراف/محمود هاشم محمود عنبر، الجامعة الإسلامية، غزة، كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، رقم (694752)، سنة (١٤٣٦هـ ــ ٢٠١٥م).

- "خصائص طريقة التربية بالموعظة في المنهج التربوي النبوي"، تأليف: كنعان عماد، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات التربوية والنفسية، فلسطين، مجلد (٢٦)، عدد (٢)، الصفحات: (٢٨٥ ــ ٣٠٣)، رقم (٨٧٧٨١٧)، سنة (١٤٣٩هـ ــ ٢٠١٨م).

- "الأساليب البيانية للتعبير عن الموعظة في كلام أمير المؤمنين علي ــ رضي الله عنه ــ في نهج البلاغة"، تأليف/المدني ابتسام عبدالكريم، وعبد حنان مقصد، مشارك، مجلة مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة – مركز دراسات

الكوفة، العراق، عدد (٦٦)، الصفحات (٢٦ ــ ٣٨)، رقم (١٣٥٢١٩٥)، سنة (١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م).

هذا، وقد اتضح الفرق بين الدراسات السابقة، وموضوع البحث، فلم يدرس أحد منها مقامات الموعظة عند الموت في البيان النبوي الشريف، ومدى تأثير ذلك على المخاطب بدراسة منفردة.

منهج البحث:

كان المنهج الانتقائي هو الأوفق والأنسب لهذه الدراسة؛ وذلك من خلال أمور أهمها:

- قراءة (صحيح البخاري) بتؤدة؛ للوقوف على الموعظة النبوية عند الموت، وجمعها، وتصنيفها.

- انتقاء الأحاديث التي تناسب تقسيمات البحث، وتحليلها تحليلًا بلاغيًا يسهم ويبرز مراده ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومدى استدعاء مقتضى الحال له، ومدى وفائه بغرض الكلام، وأثر ذلك على المخاطب والسامع.

- الاعتماد على كلام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ خاصة في الأحاديث التي اشتملت على الموعظة.

- تحليل كل حديث على حدة مع ذكر معناه العام، وسبب وروده إن وجد، ثم تحديد موطن الموعظة في البيان النبوي الشريف، وإبراز أثر السياق في اصطفائها دون غيرها.

- إظهار بلاغة الموعظة وملائمتها في السياق إلى ما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم.

خطة البحث

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، أما المقدمة، فقد تناولت فيها أهم أسباب اختيار الموضوع وأهميته، وأهم أهداف ودوافع ذلك البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.

ثم التمهيد، وقد جاء على محورين:

المحور الأول: تعريف الموعظة ودورها في البيان النبوي الشريف.

المحور الثاني: القيمة البلاغية للموعظة النبوية.

وقد اقتضى المقام أن يأتي البحث على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الموعظة في مقام التنبيه.

المبحث الثاني: الموعظة في مقام التبشير .

المبحث الثالث: الموعظة في مقام الإنكار.

ثم بخاتمة بها أهم النتائج، والتوصيات التي توصل إليها البحث، ثم أهم المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يوفقنا إلى الخير والسداد، وأن يتجاوز عنا الخلل والنقص، والنسيان، وان يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، وأن يجزي عنا أساتذتنا ومن علمونا خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

التمهيد:

المحور الأول: تعريف الموعظة ودورها في البيان النبوي الشريف

الموعظة لغة: "الوَعْظ والعِظةُ والعَظةُ والمَوْعِظةُ: النُّصْح والتذْكير بالعَواقِب؛ قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: هُوَ تَذْكِيرُكَ للإِنسان بِمَا يُلَيِّن قلبَه مِنْ ثَوَابٍ وعِقاب" (١).

واصطلاحًا: " هي التي تلين القلوب القاسية، وتدمع العيون الجامدة، وتصلح الأعمال الفاسدة" (٢).

ومن خلال التعريف اللغوي والاصطلاحي لمفهوم الموعظة، نلمح أنها تدور حول الحث والإنذار اللذان يتضمنان اعتبارات أخلاقية، ويهدفان إلى إصلاح الأخطاء وتقويم الاعوجاج.

هذا، والموعظة النبوية تشتمل على الترغيب والترهيب لما كان له من أثره البالغ في هداية البشرية إلى طريق الخير والسعادة، وإبعادها عن طريق الباطل والفساد، فهناك نفوس لا تستجيب إلا إذا رغبت وبين لها جزاء عملها، وهناك نفوس لا تستجيب إلا إذا خوفت، فالنفوس البشرية تتطلع دائمًا إلى ما يحقق لها السعادة والنجاح، ويكفل لها الفوز والفلاح، فهي تتطلع إلى ما يعود عليها بالنفع والمصلحة، وتخشى الضيق والشقاء، ومن هنا كان للترغيب والترهيب أثره في البيان النبوي الشريف.

والأحاديث النبوية الشريفة ترغب العباد في الخير والمعروف، وتحملهم على فعل الخيرات والصالحات، وترهبهم من الشر والمنكرات، والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يستخدم كلًا في المكان الذي يراه مناسبًا، مراعيًا لنفسيات المخاطبين وظروفهم.

١- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)، مادة (وع ظ)، (٤٦٦/٧)، ط٣، دار صادر، بيروت (١٤١٤ه).

٢- كتاب التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، تح/جماعة من العلماء بإشراف الناشر(ص:٢٣٦)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٣ه/١٩٨٣م).

هذا، وقد كان لمنهج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبلغ الأثر في إقبال الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ على مواعظه والعمل بها وانتشارها، فقد سلك ــ صلى الله عليه وسلم ــ في ذلك أبلغ الطرق التي من أهمها:

- **اختيار الأوقات المناسبة للموعظة وعدم الإكثار منها:**

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا" [١]، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يتعهد الصحابة ويعظهم في بعض الأيام دون بعض، ويتحرى الأوقات المناسبة التي يجتمع فيها الناس كالجنازة، والمواسم مثلا، كما كان يقتصد في مواعظه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى يستفيد بها السامعون؛ لأن الإكثار منها يُمِلُّهم وينفرهم .

- **الحرص على الكلمات المؤثرة:**

كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يختار الكلمات المؤثرة التي تؤثر في المخاطب، ومن أمثلة ذلك ما رواه الترمذي بسنده: "عَنْ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ" [٢] .

١- صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر، كتاب العلم، باب ما كان النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا (٢٥/١)، رقم (٦٨)، ط١، دار طوق (١٤٢٢ه).

٢- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي(ت: ٢٧٩هـ)، تح/أحمد شاكر، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٤٤/٥)، رقم (٢٦٧٦)، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر(١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥م).

-إظهار الغضب في المواعظ التي تستلزم ذلك:

ومن ذلك ما جاء في مقام النهي عن شق الجيوب ولطم الخدود على الميت، فيما رواه البخاري بسنده: " عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ " [1]، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنكر فعل المخاطب، لما فعله من أفعال الجاهلية حال المصيبة من اللطم على الخد وشق الثوب، فأراد أن يظهر للسامع أن الدين الإسلامي نهى عن الغلو في هذه الأفعال، وعلى المسلم أن يتحلى بالصبر والاسترجاع.

-تبشير المخاطب وتوجيه العقول نحو التدبر:

ومن ذلك ما رواه البخاري بسنده: "عن أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» [2]، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراد أن يبشر أم حارثة ومن شاهدها بكرم الله تعالى وواسع عطائه، فهي جنان كثيرة، وإن ابنها أصاب أعلى مكان في الجنة.

-استغلال بعض الأحداث في التربية والتعليم:

كتوجيهه ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى التحذير من فتنة الدنيا، وتبشير الأمة بالرخاء المادي، فيما رواه البخاري بسنده: "عن عروة بن الزبير أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: " فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب (٨٢/٢) رقم (١٢٩٤).

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله (٢٠/٤)، رقم (٢٨٠٩).

فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ" [١]، ومنه أيضًا تعليم المخاطب أن الصبر الذي يستحق الجزاء من الله تعالى ما كان عند سماع المصيبة من أول وهلة، وذلك في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى"[٢].

والناظر في البيان النبوي الشريف يلمح صورًا عديدة للطرق الصحيحة في مخاطبة النفوس وحال المخاطب، وأن الموعظة كانت بمثابة الدواء الذي أصاب موضع الداء، وفي الدراسة التطبيقية يعرض البحث مزيدًا من الموعظة النبوية الشريفة في مختلف المقامات تكون لنا نبراسًا ونورًا نستضيء به .

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منه (٨٤/٥) رقم (٤٠١٥).

٢- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (٧٩/٢)، رقم (١٢٨٣) .

المحور الثاني: القيمة البلاغية للموعظة النبوية

تتمثل في تربية المدعو على الأخلاق الفاضلة، والمعاني النبيلة، والآداب السامية، وتحذير المدعويين من الأمور التي تضر بهم وبمجتمعهم، وتوجيه السائل لما هو أهم بالنسبة له، والتركيز على بعض الحقائق لترسخ في النفوس، وتثبت في القلوب، وإيضاح بعض المفاهيم والمعاني الغامضة، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة لدى المخاطبين، ...إلخ.

ولنأخذ بعض الأمثلة من موضوع الدراسة للدلالة على ذلك، قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[1]، فالموعظة النبوية دلت على النهي عن سب وشتم الأموات، والدعوى إلى مكارم الأخلاق، وحفظ اللسان.

وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ " [2].

فالموعظة النبوية دلت على النهي عن التشبه بأفعال الجاهلية عند المصيبة؛ حيث إن الإسلام أمر بالاقتصاد فى الحزن والفرح، وترك الغلو فى ذلك، وحضَّ على الصبر عند المصائب واحتساب أجرها على الله تعالى.

وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى" [3]، دلت الموعظة على أن الصبر الذي يكون عند الصدمة الأولى هو الذي يكون صبرًا على الحقيقة، وهو الذي يستحق الجزاء والأجر من الله تعالى.

هذا، وقد راعى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أحوال المخاطبين كما أمره تعالى في قوله: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات (١٠٤/٢) رقم (١٣٩٣).

٢- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب (٨٢/٢) رقم (١٢٩٤).

٣- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (٧٩/٢)، رقم (١٢٨٣) .

هِيَ أَحْسَنُ)[١]، فهذه الآية تضمنت أن الإنسان له ثلاثة أحوال كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]:

إما أن يعرف الحق ويعمل به فيدعى بالحكمة، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، إذ تخالفه نفسه فهذا يوعظ الموعظة الحسنة، فهذان هما الطريقان (الحكمة والموعظة)، وعامة الناس يحتاجون إلى الطرقين، فإن النفس لها هوى يدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته، فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة، فلا بد من الدعوة بهذا وذاك.

ولكن النوع الثالث من الناس لا يعرف الحق فحسب بل يعارضه؛ ولهذا فلا يدعى بالجدل، بل هو من باب دفع الصائل، فإذا عارض الحق معارض، جودل بالتي هي أحسن، ولهذا قال تعالى: (جَادِلْهُمْ) ، فجعله فعلا مأمورًا به مع قوله: (ادعهم) فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن ولم يقل: بالحسنة، كما قال في الموعظة؛ لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن، حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة.

وهكذا فإن مقصود القرآن بيان الحق ودعوة العباد إليه لا الجدال بغير علم، فهذا مما ذمه الله تعالى بقوله: (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ) [٣].

والبيان النبوي الشريف حمل أبلغ الأثر في إقبال الصحابة على مواعظه والعمل بها ونشرها، كما سيظهر في الدراسة التطبيقية من خلال المقامات المختلفة.

١- سورة النحل من الآية (١٢٥).

٢- ينظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين للدكتور/ مصطفى محمد حلمي (ص:٢١٧)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢٦هـ).

٣- سورة آل عمران، الآية (٦٦).

المبحث الأول

الموعظة في مقام التنبيه

جاءت الموعظة النبوية حاملة وجوه التنبيه لما أراده الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من المخاطب، فكانت أداة مؤثرة لما تحمله من الترغيب بالعاقبة الحسنة، والسعادة الخالدة لمن اتبع سبيل ربه، وقد جاء ذلك في مقامات مختلفة تكشف مراد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ منها:

ما جاء في مقام الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، فيما رواه البخاري بسنده: "عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، أَنَّ أُمَّ العَلاَءِ، امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ بَايَعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهُ اقْتُسِمَ المُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ: لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟» فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لاَ أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا " [1].

لما جاء المهاجرون إلى المدينة، نزلوا على الأنصار، فاقتسمهم الأنصار بالقرعة، فطار في قسمة بيت زيد بن ثابت، عثمان بن مظعون، فأنزلوه في أبياتهم، فمرض مرضًا شديدًا فمات، فقامت أم العلاء في حضرة النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ تثني على عثمان، فدعت له بالرحمة وشهدت له جازمة بأن الله أكرمه أي: بالجنة، فأنكر عليها النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وقال لها وما يدريك أن الله أكرمه؟ ... [2] .

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (٧٢/٢) رقم (١٢٤٣).

٢- ينظر:إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن عبدالملك القسطلاني (ت:٩٢٣هـ)، (٣٧٦/٢)، ط٧، الأميرية، مصر،١٣٢٣هـ، ومجالس التذكير من حديث البشير النذير لعبدالحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت:١٣٥٩هـ)، (ص:٨٢)، ط١، وزارة الشؤون الدينية، تونس، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

هذا، وقد جاءت الموعظة في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟)؛ تنبيهًا للمخاطب إلى ما يجوز أن يقطع به وما لا يجوز أن يتعدى حد الظن، فلا ينبغي للمسلم أن يزكي أحدًا ــ مهما بلغت منزلته في العبادة ــ بالجنة؛ لأن ذلك في علم الله تعالى ومشيئته [١].

وتظهر بلاغة الموعظة في تنبيه المخاطب إلى ما أراده الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أول وهلة، بعدم التزكية لأحد من الناس بعد هذا الموقف، وقد أقر المخاطب إقرارًا تامًا، وأقسم على ذلك في قوله: (فَوَاللَّهِ لا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا) .

كما تظهر بلاغة الموعظة في مجيئها بجملة الاستفهام (وَمَا يُدْرِيكِ) الذي تميز باليقظة والتنبه ولا سيما الاستفهام الإنكاري الذي ظهر على وجه المتكلم ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجوارحه، ما جعل المخاطب يرتدع ولا يفعل ما فعل مرة ثانية.

وقد تآزر مع جملة الموعظة ــ في هذا المقام ــ التأدب مع مقام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث فدته بأبيها ــ رضي الله عنها ــ تأدبا معه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في الخطاب، وأرادت الاستفهام والتوضيح منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقالت: (فمن يكرمه الله): أي: هو مؤمن خالص مطيع، فإذا لم يكن هو من المكرمين مع سابقيته وهجرته وبدريته فمن يكرم![٢] .

فوضح لها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حقيقة الأمر، وبين لها ما يخفى عليها في هذه المسألة معلمًا وموجهًا ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال لها: (أما هو فقد أتاه اليقين)، يعني: الموت وهذا مقطوع به، وإني لأرجو له الخير، وهذا هو الذي لا يجاوز حد الظن، ثم بين لها ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن البشر لا يعلمون الغيب حتى الأنبياء ــ عليهم السلام ــ فإنهم لا

١- ينظر: مجلس التذكير (ص:٨٢).

٢- ينظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري لمحمد بن يوسف الكرماني (ت: ٧٨٦هـ)، (٥٤/٧)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م.

يعلمون إلا ما علمهم، فقال لها: (والله لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي)، فاهتدت إلى ما هداها إليه النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وقالت والله لا أزكي أحدا بعده أبدًا، تعني مثل هذه التزكية التي قطعت له فيها بالكرامة[١].

ومن هنا كان تأثير الموعظة على المخاطب أداة قوية في التنبيه والإفهام بطريقة مرضية تفهامها المخاطب، ووعاها في أسلوب بليغ، لا يقدر عليه مثله صلى الله عله وسلم .

ومنها ما جاء في مقام النهي عن سب الأموات، فيما راوه البخاري بسنده: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» [٢].

سبب ورود الحديث " أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَقَعَ فِي أَبِي الْعَبَّاسِ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَطَمَهُ الْعَبَّاسُ، فَجَاءَ قَوْمَهُ، فَقَالُوا: وَاللهِ لَنَلْطِمَنَّهُ كَمَا لَطَمَهُ، فَلَبِسُوا السِّلاحَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: " أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ؟ قَالُوا: أَنْتَ، قَالَ: " فَإِنَّ الْعَبَّاسَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُ، فَلا تَسُبُّوا أَمْوَاتَنَا، فَتُؤْذُوا أَحْيَاءَنَا، فَجَاءَ الْقَوْمُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ غَضَبِكَ"[٣].

وجاءت الموعظة النبوية في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (لا تسبوا الأموات)؛ تنبيهًا للمخاطب على النهي عن علة الإمساك وهي شتم الأموات، فهم أفضوا إلى ما عملوه من حسن أو قبيح .

١- ينظر: مجالس التذكير: (ص:٨٢، ٨٣).

٢- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات (١٠٤/٢) رقم (١٣٩٣).

٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح/شعيب الأرنؤوط، وآخرون (٤٦٦/٤)، رقم (٢٧٣٤)، من مسند عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، ط١، مؤسسة الرسالة (١٤٢١هـ /٢٠٠١م)، وينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري لمحمد محمود العينى (ت: ٨٥٥هـ)، (٢٣٠/٨)، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وقد ظهرت البلاغة النبوية في مجيء الكلام على خلاف الظاهر؛ حيث نُزل غير السائل منزلة السائل، وقد قدم له ما لوح له بحكم الخبر، فاستشرف له استشراف الطالب المتردد، فأكد له ــ صلى الله عليه وسلم ــ الخبر؛ تصحيحًا، وتأكيدًا للكلام السابق، وبيانًا لوجه الفائدة فيه، فكأن المخاطب يسأل لما لا نسب الأموات؟ فجاء الخبر مقرونًا بـ (إن) في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا)؛ تأكيدًا وتنبيهًا على أهمية مضمون الخبر.

وهذا الأسلوب البلاغي كثير في التنزيل، كقوله تعالى: (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)[١]، وقوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٢]، وقوله تعالى على لسان سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٣]، وهي على الجملة من الكثرة بحيث لا يدركها الإحصاء[٤]، ويبدوا أن هذا اللون البلاغي يكثر بعد الأمر والنهي والنداء والتحذير...إلخ؛ ليؤكد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أهمية مضمون الخبر، فيستجيب السامع لهذا الأمر دون تردد أو تمهل.

وقد اشتمل البيان النبوي الشريف ــ محل الشاهد ــ على اقتران التأكيد بـ (الفاء) في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا)؛ لأن التعليل بـ(الفاء) و(إنَّ) في كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ " يمنح التعليل من دلالته الوضعية عنصرًا آخر غير الذي يعطيه الآخر له، فالفاء تشرب التعليل معنى التعقيب مثلما تشرب (إنَّ) معنى التوكيد، وهذه الصيغة كثيرة الحضور في الخطاب الشريف كتابًا وسنة" [٥].

١- سورة هود، الآية (٣٧).

٢- سورة التوبة، الآية (١٠٣).

٣- سورة يوسف، الآية (٥٣).

٤- ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تح/ياسين الأيوبي (ص:٢٦٧)، ط١، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، المكتبة الشاملة موافق للمطبوع.

٥- سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة دراسة منهجية تأويلية ناقدة، أ. د/ محمود توفيق (ص: ٢١٤)، ط، مصر.

وظهرت البلاغة النبوية في النهي عن سب الأموات جميعًا مسلمين وغيرهم، وقيل : إن النهي خاص بأموات المسلمين[١]؛ لأن (أل) في لفظ الأموات للعهد أي: أموات المسلمين[٢].

وعلى وجه الجملة ظهرت البلاغة النبوية في النهي عن سب الأموات؛ لأنهم قد أفضوا إلى جزاء أعمالهم، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراد أن يعلم المخاطب حسن التربية وحفظ اللسان ولا سيما مع الأموات الذين ذهبوا إلى خالقهم، فـ (ما) في محل الشاهد مصدرية أي: النهي عن شتمهم من السب، وهو القطع [٣].

وقد تآزر مع (ما) المصدرية في الحث عن سب الأموات، دخول (إنَّ) التأكيدية على جملة الخبر في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا)، فـ " ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه، وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغًا واحدًا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر" [٤].

١- ينظر: شرح صحيح البخارى لابن بطال، تح/أبو تميم ياسر بن إبراهيم (٣/٣٥٤)، ط٢، مكتبة الرشد، السعودية (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م)، وعمدة القاري (٨/٢٣٠).

٢- وقيل: فيما أخرجه ابن أبي الدنيا، عن محمد بن علي رضي الله عنهما: " نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُسَبَّ قَتْلَى بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَالَ: «لَا تَسُبُّوا هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ مِمَّا تَقُولُونَ وَتُؤْذُونَ الْأَحْيَاءَ، أَلَا إِنَّ الْبَذَاءَ لُؤْمٌ"، وقيل: إن ذكر شرار الموتى من أهل الشرك خاصة جائز لأنه لا شك أنهم في النار، وسب الأموات يجري مجرى الغيبة فإن كان أغلب أحوال المرء الخير وقد تكون منه الغلبة فالاغتياب له ممنوع، وإن كان فاسقا معلنا فلا غيبة له فكذلك الميت، ويؤيد ذلك ما أجمع عليه أهل العلم من ذكر الكذابين وتجريح المجرَّحين. ينظر: الصمت وآداب اللسان لأبي بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، تح/أبو إسحاق الحويني، باب ذم الفحش والبذاء (١/٨٣) رقم (٣٢٠)، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤١٠ه)، وشرح صحيح البخارى لابن بطال(٣/٣٥٤)، وعمدة القاري (٨/٢٣٠).

٣- ينظر: عمدة القاري (٨/٢٣٠).

٤- دلائل الإعجاز، تح/ياسين الأيوبي (ص:٢٦٧).

فالبيان النبوي يكشف للسامع سلوك التربية ويقطع بترك الفحش والبذاءة ولو كانت مع الأموات، فما ظنك بمن هو على قيد الحياة ؟!، فالموعظة البيانية في هذا المقام أظهرت للسامع سماحة وأخلاق الإسلام مع الناس أحياء وأمواتًا، فكان البيان الكريم أداة سريعة في يقظة السامع وانتباهه .

ومنها ما جاء في مقام تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، فيما رواه البخاري بسنده: "عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا: سَمِعَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: إِنَّمَا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ يَبْكِي عَلَيْهَا أَهْلُهَا، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ عَلَيْهَا وَإِنَّهَا لَتُعَذَّبُ فِي قَبْرِهَا»[١].

سبب ورود الحديث الشريف أنه: " مر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على يهودية يبكى عليها، فقال: إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها" [٢]، " وهذا الحديث أيضا في الواقع نفي لما قاله عبد الله بن عمر ــ رضي الله تعالى عنهما ــ (إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْه):[٣]، " فالتقدير: ما قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك، وإنما مر على يهودية[٤] ..." [٥].

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ " يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه " إذا كان النوح من سنته (٨٠/٢) رقم (١٢٨٩).

٢- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لإبراهيم بن محمد الحُسَيْني الحنفي الدمشقيّ (ت: ١١٢٠هـ)، تح/سيف الدين الكاتب (٢٢٠/١)، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ " يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه " إذا كان النوح من سنته (٨٩/٢) رقم (١٢٨٦) .

٤- حين ذُكر لعائشة ــ رضي الله عنها ــ أن عبد الله بن عمر يقول: إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه، قالت عائشة: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، أما أنه لم يكذب، ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على يهودية... الحديث . ينظر: عمدة القاري (٨٢/٨).

٥- المرجع السابق (٨٢/٨).

هذا، وقد جاءت الموعظة في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها)؛ تنبيهًا على أنها تعذب بالكفر، وهؤلاء يبكون ولا يدرون ما هي فيه [١].

وقد أفاض البيان النبوي الشريف معاني عظيمة من خلال فنون الكلام وتراكيبها، فقد أسهم التعبير بـ (إن) المشددة و(اللام) اللتان تدلان على التوكيد على عظم صورة البكاء الصادر من اليهود على تلك المرأة الميتة، كما أن التوكيد بأكثر من مؤكد أفاد كثرة وقوع البكاء من جماعة اليهود حتى شمل الأطفال وغيرهم، وهو ما جعل الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يخبر وينبه صحابته الكرام على شأن هذه المرأة وما صارت إليه بعد الموت، وكأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول لصحابته الذين شاهدوا كثرة وفظاعة البكاء على المرأة الميتة، إن هؤلاء يبكون لفقدها ولا يدرون ما هي فيه من العذاب بسبب كفرها وعنادها .

وقد ظهرت القيمة البلاغية من خلال الموعظة في البيان النبوي الشريف؛ حيث تنبه السامع إلى خبر تلك المرأة اليهودية وما صارت إليه من العذاب بسبب كفرها وعدم دخولها في الإسلام، وأنها تعذب في قبرها، وأهلها يبكون ولا يدرون ما هي فيه؛ "لأن على الكافر عذابا أعلى، فإن عذب بدونه، فزيد في عذابه، فبما استوجب، وما نيل من كافر من عذاب أدنى من أعلى منه، وما زيد عليه من العذاب فباستجابته لا بذنب غيره في بكائه عليه، فإن قيل: يزيده عذابا ببكاء أهله عليه، قيل: يزيده بما استوجب بعمله، ويكون بكاؤهم سببا، لا أنه يعذب ببكائهم، فإن قيل: أين دلالة السنة؟ قيل: قال رسول الله لرجل: ابْنُكَ هَذَا؟ " قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: "

١- ينظر: اختلاف الحديث (مطبوع ملحقا بالأم للشافعي) لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، (ص:٦٤٨)، ط، دار المعرفة، بيروت(١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، وهو جزء واحد (يقع في الجزء الثامن من كتاب الأم) المكتبة الشاملة موافق للمطبوع.

أَتُحِبُّهُ؟" قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ، وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ"[١]، فأعلم رسول الله مثل ما أعلم الله من أن جناية كل امرئ عليه كما عمله له، لا لغيره ولا عليه"[٢].

فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراد أن يظهر للسامع عذاب تلك المرأة اليهودية في القبر، وأن هذا العذاب بسبب الكفر، وإن كان البكاء يزيدها عذابا بما استوجب عملها.

وقد ساعد البيان النبوي في إظهار المقصود للسامع من خلال التعبير بضمير الشأن في قوله: (وإنها)، فـ " الأساليب التي تصاغ على هذه الطريقة حين تصيب مواقعها تجد لها مذاقا حسنا ووقعا جليلا؛ لأن الضمير حين يطرق النفس من غير أن يكون له عائد يعود عليه يصيرها إلى حالة من الغموض، والإبهام لا قرار لها معها، فتستشرف إلى اكتشاف الحقيقة المتوارية وراء الغموض المثير، فإذا جاءت الجملة المفسرة تمكن معناها، ووقع في القلب موقع القبول، وتراهم لا يبنون الكلام على هذا الأسلوب إلا في المعاني المهمة التي يهيئون النفوس لتلقيها ...؛ لأن الخبر الواقع بعد ضمير الشأن لا بد، وأن يكون خبرًا ذا بال " [٣]، فالتعبير بضمير الشأن ومفسره الجملة بعده وضح للسامع ما تستحقه تلك المرأة من العذاب بسبب كفرها، فما جاء بعد ضمير الشأن من التوكيد بـ (اللام) والفعل المضارع في قوله: (لتعذب) أكد استحقاق هذا العذاب في صورة واضحة بعيدة عن الشك، كما أن التعبير بالمضارع (تعذب) أفاد استمرار هذا العذاب وعدم انقطاعه، كذلك التعبير بالتقييد في قوله: (في قبرها) دل على سرعة استحقاق العذاب حين دخولها القبر.

١- مسند الإمام أحمد (٦٧٨/١١) رقم (٧١٠٧)، من مسند أبي رمثة رضي الله عنه.

٢- اختلاف الحديث للإمام الشافعي (ص: ٦٤٨).

٣- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ.د/ محمد محمد أبو موسى (ص:٢٤٢)، ط٧، مكتبة وهبة .

والحديث عن الأمور الغيبية ولا سيما عذاب القبر يحتاج إلى تهيئة النفس حتى يتمكن فيها، فكان التعبير بضمير الشأن وما تزاحم معه من معان بلاغية، هو الأقدر على احتواء الصورة ورسوخها في قلب السامع .

ومنها ما جاء في مقام البكاء عند زيارة القبر، فيما رواه البخاري بسنده:

"عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى" [1].

دل البيان النبوي الشريف على بيان فضل الصبر عند المصيبة والمكروه الذي ينزل بالإنسان [2].

وقد جاءت الموعظة في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (اتقي الله واصبري...، إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، مظهرة فضل وقوع الصبر لمن أصابه مكروهًا، وتظهر قيمة الموعظة في البيان النبوي الشريف، في أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو، وأن المرء لا يؤجر على المصيبة لأنها ليست من صنعه، وإنما يؤجر على حسن تثبته وجميل صبره [3].

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (٧٩/٢)، رقم (١٢٨٣) .

٢- ينظر: شرح سنن أبي داود لأبي محمد محمود بدر الدين العينى (ت: ٨٥٥هـ)، تح/ أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري(٤٨/٦)، ط١، مكتبة الرشد/ الرياض (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

٣- ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي (١٥٠/٣)، ط، دار المعرفة، بيروت، (١٣٧٩ه).

والبيان النبوي الشريف ــ في هذا المقام ــ ينبه المخاطب على تقوى الله والتحلي بالصبر حين المصيبة، فالصبر بمعنى الحبس[١]، أي: صبر نفسه وحبسها عن شهواتها وقهرها عن الحزن والجزع والبكاء الذي فيه راحة النفس وإطفاء لنار الحزن، فإذا قابل سورة الحزن بالصبر الجميل، وتحقق أنه لا خروج له عن قضاء الله تعالى وأنه يرجع إليه بعد الموت، استحق حينئذ جزيل الأجر وعد من الصابرين الذين وعدهم الله بالرحمة والمغفرة [٢].

والبلاغة النبوية تحث المخاطب على رضى الله تعالى ودخول جنته؛ حيث قدم البيان النبوي الشريف، التقوى على الصبر في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي)؛ لأن التقوى أعم فهي تدل على الثبوت والدوام قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّه):[٣]، أي: " اثْبُت عَلَى تَقْوى اللهِ ودُمْ عَلَيْهِ "[٤]، ومن اشتمل على التقوى من باب أولى أن يتحلى بالصبر وعدم الجزع عند المصيبة.

وتأمل البلاغة النبوية في مخاطبة المرأة صاحبة المصيبة بالأسلوب الحكيم[٥]؛ حيث إن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين قالت له: (لم أعرفك) الظاهر أن يقول لها ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنا رسول الله، لكنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ عدل عن هذا الظاهر وخاطبها بما هو أنفع لها فكأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لها دعي الاعتذار فإني لا أغضب لغير الله وانظري لنفسك في

١- ينظر: لسان العرب، مادة (ص ب ر)، (٤/٤٤٠).

٢- ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/١٠١).

٣- سورة الأحزاب، من الآية (١).

٤- لسان العرب، مادة (و ق ي)، (١٥/٤٠٢).

٥- " وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له ". الإيضاح في علوم البلاغة لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، المشهور بالخطيب القزويني (ت: ٧٣٩هـ)، تح/محمد عبد المنعم خفاجي (٢/٩٤)، ط٣، دار الجيل، بيروت.

قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى) على طريق الأسلوب الحكيم.

وتظهر القيمة البلاغية في التعبير بالموعظة البيانية التي جاءت على طريق الأسلوب الحكيم؛ حيث إنه " ربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه في معرض المسحور" [١]، وقد ظهر هذا الأمر في البيان النبوي الشريف، فـ " لما جاءت طائعة لما أمرها به من التقوى والصبر معتذرة عن قولها الصادر عن الحزن بين لها أن حق هذا الصبر أن يكون في أول الحال فهو الذي يترتب عليه الثواب " [٢]؛ ولهذا صدره ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأداة الحصر (إنما) التي تفيد قصر الصبر على الحالة الأولى من سماع خبر المصيبة، فـ " الصبر الذي يكون عند الصدمة الأولى هو الذي يكون صبرا على الحقيقة، وأما السكون بعد فوات المصيبة ربما لا يكون صبرا، بل قد يكون سلواه، كما يقع لكثير من أهل المصائب، بخلاف أول وقوع المصيبة، فإنه يصدم القلب بغتة فلا يكون السكون عند ذلك، والرضى بالمقدور إلا صبرا على الحقيقة" [٣].

وتظهر بلاغة الموعظة ــ في هذا المقام ــ فيما كان فيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من التواضع والرفق بالجاهل، ومسامحة المصاب وقبول اعتذاره، والنصيحة النافعة له...إلخ.

١- مفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر السكاكي (ت: ٦٢٦هـ)، تعليق/ نعيم زرزور(ص: ٣٢٧)، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).

٢- فتح الباري (١٥٠/٣).

٣- عمدة القاري (٦٨/٨).

المبحث الثاني

الموعظة في مقام التبشير

جاءت الموعظة النبوية؛ تخفيفاً وتسلية للمخاطب بما تحمله من تبشيرٍ ومكافأة، جزاء لما أصابه من مصيبة الموت، فكانت الموعظة دواء أصاب موضع الداء، فهمها المخاطب ووعاها، وذلك في مقامات منها:

ما جاء في مقام فضل من شهد بدرًا، فيما رواه البخاري بسنده:

عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ:«يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى»[١].

جاءت أم حارثة تسأل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن حال حارثة ومآله، وقد شهد ــ رضي الله عنه ــ بدرًا وقتل فيها شهيدًا، وهو أول من قتل شهيدًا من الأنصار يومئذ، وقد أتاه سهم من حيث لا يدرى راميه فقتله، فجاءت أم حارثة تبكي لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقالت له ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخبرني عن حارثة إن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء عليه، فأخبرها ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن حارثة في أعلى درجات الجنة، فاطمئن قلبها فهدأت[٢].

هذا، وقد جاءت الموعظة في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى)؛ تبشيرًا لدخول سيدنا

١- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله (٢٠/٤)، رقم (٢٨٠٩).

٢- ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤٧/٥)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن (سلطان) الهروي (ت: ١٠١٤هـ)، (٦/ ٢٤٦٧)، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

حارثة أعلى منازل الجنة، وتهدئة لقلب المخاطب واحتواءً لحزنه العميق، وهنا ظهرت بلاغة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع حال المخاطب، فلم يعنف أم حارثة بالبكاء بل أقرها ــ صلى الله عليه وسلم ــ " وأجيب بأن هذا كان قبل تحريم النوح، فلا دلالة، فإن تحريمه كان عقيب غزوة أحد، وهذه القصة كانت عقيب غزوة بدر" [١] .

وتظهر بلاغة الموعظة النبوية في اختيار الألفاظ التي تتناسب مع حال المخاطب ومقامه، كاستخدامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأداة النداء (يا) التي يمتد بها الصوت مراعاة لحال أم حارثة الحزينة على فقد ولدها، كذلك استخدامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لضمير الشأن (إنها)، الذي أظهر تشويقًا في نفس المخاطب، فلما فسر بما جاء بعده أحدث تأكيدًا واطمئناناً في نفس المخاطب ولا سيما وأن المتكلم هو رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذي لا ينطق عن الهوى، كما أخبر سبحانه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [٢] .

ومن البلاغة النبوية ــ في هذا المقام ــ تنكير لفظ الجنة في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (إِنَّهَا جِنَانٌ) تفخيمًا وتعظيمًا، أي: درجات [٣]، وفي رواية: " إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ" [٤]، والتعبير بلفظ الجنة ــ ولا سيما في هذا المقام ــ يوحي بالتهدئة النفسية التي تجعل السامع في حالة سكون واطمئنان؛ لأن الجنة ونعيمها الأبدي، تجعل كل سامع يطمع في دخولها والسكون في مرابعاها، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ شخص الداء ووصف الدواء، حتى أصبح كل من سمع هذا الخبر من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في حالة سرور وبهجة، أريت كيف تصنع الألفاظ والكلمات في القلوب!.

١- عمدة القاري (١٠٧/١٤).

٢- سورة النجم، الآيتان (٣، ٤).

٣- ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤٨/٥).

٤- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٧٧/٥) رقم (٣٩٨٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن فيض بلاغته ــ صلى الله عليه وسلم ــ التعبير بالتوكيد وأداته (إنَّ) في قوله: (وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى)؛ تأكيدًا على فضل حارثة ــ رضي الله عنه ــ وأنه في أعلى درجات الجنة، كما تظهر بلاغته ــ صلى الله عليه وسلم ــ في التعبير بالفعل (أصاب) الذي دل على كمال الغاية في تحقيق الفوز بالمطلوب في أعلى صوره، فـ " الصَّوابُ: ضدُّ الخطإِ، وصَوَّبه: قَالَ لَهُ أَصَبْتَ" [١].

والبيان الشريف ــ في هذا المقام ــ يشير إلى فضل الشهادة في سبيل الله ــ تعالى ــ وأن لها غاية عظيمة عنده تعالى كما قال سبحانه: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [٢]، والمقام يشير إلى فضل شهداء بدر خاصة، كما أخبر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في قوله: " لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"[٣] .

وظهرت القيمة البلاغية للموعظة ــ في هذا المقام ــ من خلال هدوء المخاطب وسكونه، بل ورجاء كل سامع سمع بهذه القصة أن يكون مثل حارثة ــ رضي الله عنه ــ فهذه أم حارثة حين جاءت باكية موجوعة على فقد ولدها، فسمعت هذه البشرى من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ انقلب حالها من الحزن إلى الفرح، ومن الضيق والهم إلى انشراح الصدر والفرج، ومن البكاء إلى الضحك، وفي النهاية سلمت أم حارثة لمراده ــ صلى الله عليه وسلم ــ و " رجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة " [٤] .

١- لسان العرب، مادة (ص و ب)، (٥٣٥/١).

٢- سورة آل عمران، الآية (١٦٩).

٣- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٧٧/٥) رقم (٣٩٨٣) من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

٤- إرشاد الساري (٤٨/٥).

فالبيان النبوي الشريف من خلال هذه الموعظة، استطاع أن يقلب حال المخاطب بكلمات لا يقدر عليها مثله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلم يعنف هذه الأم بالبكاء على ولدها، بل طيب خاطرها وبشرها بحال ولدها حتى تمنت كل أم أن تكون مثل هذه المرأة إلى يوم القيامة.

ومنها ما جاء في مقام ظل الملائكة على الشهيد، فيما رواه البخاري بسنده:

عَنْ جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جِيءَ بِأَبِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ مُثِّلَ بِهِ، وَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَهَبْتُ أَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ، فَنَهَانِي قَوْمِي فَسَمِعَ صَوْتَ صَائِحَةٍ، فَقِيلَ: ابْنَةُ عَمْرٍو - أَوْ أُخْتُ عَمْرٍو - فَقَالَ: «لِمَ تَبْكِي- أَوْ لا تَبْكِي- مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا» قُلْتُ لِصَدَقَةَ: أَفِيهِ[1]«حَتَّى رُفِعَ»[2] .

يخبر سيدنا جابر ــ رضي الله عنه ــ بما فعله المشركون بأبيه عبدالله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ في غزوة أحد، وكانوا قد مثلوا به، فقطعوا أنفه وأذنيه، فجاءت عمت جابر ــ رضي الله عنه ــ تبكي وتصيح على سيدنا عبدالله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ فأخبرها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأن الملائكة يتزاحمون ويتبادرون عليه بصعود روحه إلى خالقه سبحانه [3].

وقد جاءت الموعظة النبوية في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (لِمَ تَبْكِي - أَوْ لا تَبْكِي - مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ) ضاربة أروع الأمثلة في الرفق واللين بحال المخاطب الذي أصابته مصيبة الموت، وأي مصيبة هي؟، بل هي مصيبة مقرونة بالتمثيل بالميت وتشويه جسده، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يعنف الباكية على أخيها، بل إن الرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم

١- معنى: " قُلْتُ لِصَدَقَةَ: أَفِيهِ"، " الْقَائِلُ هُوَ المُصَنِّف، وَصدقَة هُوَ ابن الْفَضْلِ شَيْخُهُ فِيهِ". فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣٢/٦).

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ظل الملائكة على الشهيد (٢١/٤)، رقم (٢٨١٦)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

٣- ينظر: عمدة القاري (١٧/٨، ١٨).

ــ أراد أن يُهدِّأَ من لوعات قلبها المكلوم على ما رأته من منظر أخيها من التمثيل والتنكيل به، فبشرها وهدأ قلبها ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأن الملائكة ما زالت تظله بأجنحتها، فكيف تبكي عليه مع حصول هذه المنزلة له؟ [١] .

هذا، وقد ساعد في تهدئة قلب المخاطب كثير من التعبيرات البلاغية في هذا المقام، كالتعبير بالاستفهام أو النهي في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ((لِمَ تَبْكِي أَوْ لا تَبْكِي) شك من الراوي، فقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " (لِمَ تبكي) بكسر اللام وفتح الميم أي: لم تبكي هي فالخطاب لغيرها، وإلاّ فلو كان مخاطبًا لها لقال: لم تبكين؟" [٢]، وفي رواية: " (تَبْكِينَ أَوْ لا تَبْكِينَ) [٣]، فـ " كلمة: أو، ليست هي للشك من الراوي، بل هي من كلام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ للتسوية بين البكاء وعدمه، أي: فوالله إن الملائكة تظله سواء تبكين أم لا " [٤]، فالتعبير بالاستفهام أو النهي شك من الراوي في الرواية الأولى فيه معنى التنبيه والإيقاظ إلى عدم البكاء على الشهيد؛ لأنه في حالة طيبة عندالله تعالى، فالملائكة تتزاحم وتتكاثر عليه حتى يصعدون بروحه إلى السماء، ففي هذا معنى التنبيه إلى أن مثل هذا المفقود لا ينبغي الحزن عليه بهذه الصورة، فهو في مكانة عالية عند الله تعالى.

وفي الرواية الثانية نلمح معنى التأكيد على أن الشهيد في منزلة عالية عند الخالق ــ سبحانه ــ فسواء بكى أهل الشهيد، أم لم يبكوا عليه فهو في منزلة عظيمة، وفي كلتا الروايتين معنى التبشير والخير للشهيد .

ومن فيض بلاغته ــ صلى الله عليه وسلم ــ التعبير بالفعل المضارع (تظله): الذي دل على تجدد واستمرار ظل الملائكة لهذا الشهيد، فالملائكة يجتمعون

١- ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٥٢/٥).

٢- المرجع السابق (٥٢/٥).

٣- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (٧٢/٢)، رقم (١٢٤٤) .

٤- عمدة القاري (١٧/٨).

ويتزاحمون على المبادرة بصعود روحه ــ رضي الله تعالى عنه ــ وتبشيره بما أعد الله له من الكرامة، أو أنهم أظلوه من الحر لئلا يتغير، أو لأنه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله [١].

وعلى الجملة يمثل هذا الحديث فضيلة عظيمة لسيدنا عبدالله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ لم تسمع لغيره من الشهداء في دار الدنيا، فقد روى الإمام ابن ماجة في سننه من حديث جابر بن عبدالله ــ رضي الله عنهما ــ " يَقُولُ: لَمَّا قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ يَوْمَ أُحُدٍ، لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ فَقَالَ: "يَا جَابِرُ، أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ لِأَبِيكَ؟ " ...، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ:"مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ، قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[٢]" [٣]، فالبشارة في البيان الشريف واضحة وظاهرة لسيدنا عبدالله رضي الله عنه .

ومن بلاغة البيان الشريف ــ في هذا المقام ــ جواز البكاء على الميت، ونهى أهل الميت بعضهم بعضا عن البكاء للرفق بالباكي[٤]، فالرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يستنكر البكاء على أهل الميت، وإنما بشرهم بما جعلهم يتفاخرون بهذا الشهيد، وجعل كل سامع وحاضر يتمنى أن يكون في موقف كهذا، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حارب لوعة الفقد وذاك الألم بهذه البشارة العظيمة.

١- ينظر: المرجع السابق (١٨/٨).

٢- سورة آل عمران، الآية (١٦٩).

٣- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ)، تح/شعيب الأرنؤوط وآخرون، أبواب السنة، باب فيما أنكرت الجهمية (١٣١/١)، رقم (١٩٠)، ط١، دار الرسالة العالمية، بيروت، عام، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

٤- ينظر: عمدة القاري (١٨/٨).

ومنها ما جاء في مقام فضل من مات له ولد فاحتسب، ما رواه البخاري بسنده:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنَ النَّاسِ مِنْ مُسْلِمٍ، يُتَوَفَّى لَهُ ثَلَاثٌ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ»(١).

سبب ورود الحديث، أن امرأة جاءت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقالت: يا رسول الله ادعُ الله لي في ابن لي بالبركة، فإنه قد توفي لي ثلاثة، فقال: أو أَسْلَمْتِ؟ قالت: نعم، فذكر الحديث(٢).

جاءت الموعظة النبوية في هذا الحديث الشريف مبشرة لمن صبر على فقدان أولاده الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، وقد جعل الله تعالى جزاء آبائهم دخول الجنة؛ جزاء لما صبروا عليه من مرارة الفقد في الدنيا.

وقد كشف البيان الشريف، هذه البشارة في تراكيبه وألفاظه، فالتعبير بـ (من) الأولى دل على بيان من استحق البشارة من المسلمين، وهو الذي فقد ثلاثة من أولاده الصغار الذين لم يبلغوا مبلغا تجري عليه الطاعة والمعصية، فـ (من) الأولى كشفت ووضحت تخصيص البشارة للمسند إليه (ما)، والتأكيد على هذا المضمون بالفعل الذي لم يسم فاعله (يُتوفى) أي: (يموت)؛ تأكيدًا على أن هذه البشارة متعلقة وخاصة لهذه النوعية من الناس التي تدخل الجنة برحمة الله تعالى جزاء لما تحملوه من ألم المصيبة (٣).

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، وقال الله عز وجل: {وبشر الصابرين}، (٢/٧٣)، رقم (١٢٤٨).

٢- ينظر: كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري لمحمد الخضر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٥٤هـ)، (١١/٣٠٦)، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت(١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

٣- ينظر: عمدة القاري (٨/٣٠).

وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ثلاث) بيان لتتابع المصائب على هذه الفئة من الناس، فالمؤمن، أو المؤمنة إذا قدم لله ثلاثة أولاد من صلبه، أي: أولاد حقيقة لهم، لا أنهم ربوهم صغارًا، وجعلوهم أبناء لهم حسب التربيــة، وهــؤلاء الأولاد صغار، لم يبلغوا مبلغ الرجال، ويجري عليهم القلم، فيكتب عليهم الحنث، والإثــم، والذنب، إلا أدخلهم الله جل ذكره الجنة؛ بفضل رحمته إياهم، لا بفضــل صــبرهم وشكرهم؛ لأن الذي وفقهم للصبر، والشكر هو الله سبحانه وتعالى، والله عــدل، ذو رحمة واسعة، وكرم متناه [١].

هذا، وقد ورد في حديث آخر: أن من فقد له ولدان أيضًا له الجنة، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه: " أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا فَوَعَظَهُنَّ، وَقَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَــدِ، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ»، قَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَانِ؟ قَــالَ: «وَاثْنَــانِ» [٢]، وفــي روايــة للنسائي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَنْ احْتَسَبَ ثَلَاثَةً مِنْ صُلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، فَقَامَتِ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: أَوِ اثْنَانِ؟ قَالَ: «أَوِ اثْنَانِ»، قَالَتِ الْمَرْأَةُ: يَا لَيْتَنِي قُلْتُ وَاحِدًا" [٣].

وهذه الروايات تتآزر مع محل الشاهد في تأكيد عطاء الله تعالى وكرمه، لمن صبر على فقد ولده الصغير في الدنيا، كما كشفت هذه الروايات فضل الموعظــة، ولا سيما مع النساء التي فطر الله تعالى قلوبهن على حب الطفل، فأتت الموعظــة ثمارها وغايتها في صورة إيمانية، تلقها المخاطب بالقبول واليقين.

١- ينظر: الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية لــزين الــدين محمــد المنــاوي القــاهري (ت: ١٠٣١هــ)، شرح/عبد القادر الأرناؤوط – طالب عواد (ص: ١٢٩، ١٣٠)، ط، دار ابن كثيــر دمشق، المكتبة الشاملة موافق للمطبوع.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب، وقال الله عز وجل: {وبشر الصابرين}، البقرة: ١٥٥، (٧٣/٢) رقم (١٢٤٩) .

٣- السنن الصغرى للنسائي لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هــ)، تح/عبــد الفتاح أبو غدة، كتاب الجنائز، باب ثواب من احتسب ثلاثة من صلبه (٢٣/٤) رقــم (١٨٧٢)، ط٢، طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب،(١٤٠٦ه – ١٩٨٦م).

المبحث الثالث

الموعظة في مقام إنكار فعل المخاطب

جاء البيان النبوي الشريف، من خلال الموعظة في مقام إنكار فعل المخاطب، أداة بارزة فيما أراده الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحذر منه، وقد كان السامع يقظ السمع مدركًا أهمية الموعظة وقبولها، وقد جاءت الموعظة في مقامات منها:

ما جاء في مقام النهي عن النياحة ولطم الخدود، وشق الجيوب، فيما رواه البخاري بسنده: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ " [١].

دل البيان النبوي الشريف على تحريم الويل والنياحة، وضرب الخد، وشق الثوب، وسائر أفعال الجاهلية عند المصيبة[٢]، وتظهر بلاغة الموعظة في البيان النبوي الشريف في النهي عن التشبه بأفعال الجاهلية عند المصيبة؛ حيث إن الإسلام أمر بالاقتصاد فى الحزن والفرح، وترك الغلو فى ذلك، وحضَّ على الصبر عند المصائب واحتساب أجرها على الله، وتفويض الأمور كلها إليه تعالى، فينبغي على المسلم أن يتحلى بالصبر كما أخبر سبحانه: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)[٣]، فحق على كل مسلم مؤمن عَلِمَ سرعة الفناء ووشك الرحيل إلى دار البقاء ألا يحزن على فائت من الدنيا، وأن يستشعر الصبر والرضا، لينال هذه الدرجات الرفيعة من ربه، وهى الصلاة والرحمة والهدى، وفى واحد من هذه المنازل سعادة الأبد [٤].

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب (٨٢/٢) رقم (١٢٩٤).

٢- ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد بن علي الإتيوبي الولوي (٢٣١/٣)، ط١، دار ابن الجوزي، (١٤٢٦ه).

٣- سورة البقرة، الآيتان (١٥٦،١٥٧).

٤- ينظر: شرح ابن بطال (٢٧٧/٣، ٢٧٨)

والبيان النبوي الشريف ــ في هذا المقام ــ ينبه السامع وينهاه عن البعد عن أفعال الجاهلية والاقتراب منها حال المصيبة؛ حيث جاء التعبير بأشد أنواع النهي في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ(ليس منا)" أي: ليس من أهل سنتنا ولا من المهتدين بهدينا"[١]، وجاء التعبير بهذه الصورة مبالغة في التغليظ، وإن كان المراد ليس الخروج من الدين جملة " إذ المعاصي لا يكفر بها عند أهل السنة، اللهم إلا أن يعتقد حل ذلك" [٢].

وتأمل البلاغة العالية في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (من لطم الخدود) على خلاف الظاهر، فـ (الخدود) جمع (خد)، والظاهر أن يقال: (من لطم خديه)؛ لأن للإنسان خدين فقط، ولكنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ آثر التعبير بخلاف الظاهر مبالغة في شدة الحزن التي أصابت أصحاب المصيبة، وكأنهم تلاصقوا وتجمعوا على مصيبتهم، فكثرت الخدود المتلاطمة، كما أن التعبير بالمخالفة ــ في هذا المقام ــ جاء موافقاً لمعنى (من) الموصولة في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ليس منا مَنْ)، فالجمع تأويلًا لمعناه ومراعاة له، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراد المبالغة في الزجر والنهي عن دعوى الجاهلية .

وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (وشق الجيوب) جاء على خلاف الظاهر أيضًا؛ حيث وضع الجمع (الجيوب) موضع المفرد (جيب)، والظاهر أن يقال: (وشق الجيب)؛ لأن للإنسان جيب واحد " من جابه قطعه، قال سبحانه: (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)[٣] وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس للبسه، والمراد بشقه إكمال فتحه، وهو علامة على التسخط" [٤]، وقد ظهرت بلاغة

١- عمدة القاري (٨/٨٧).

٢- عمدة القاري (٨/٨٧).

٣- سورة الفجر، الآية (٩).

٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير لزين الدين المناوي (ت: ١٠٣١هـ)، (٥/٣٨٧)، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (١٣٥٦ه).

الرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ في التعبير بخلاف الظاهر؛ لتصوير هذه الصورة المجتمعة على المصيبة الحزينة الساخطة على قضاء الله تعالى وقدره، مبالغة في النهي والزجر.

وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ودعى بدعوى الجاهلية) " وهي زمن الفترة قبل الإسلام أي: نادى بمثل ندائهم غير الجائز شرعًا كأن يقول: واكهفاه واجبلاه" [١]، وهذه الأفعال غير مناسبة للسياق والنفي الذي حاصله التبري يقع بكل واحد من الثلاثة، ولا يشترط وقوعها كلها معا، وأصل البراءة الانفصال من الشيء، فكأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ توعده بأنه لا يدخله في شفاعته مثلا، وهو يدل على عدم الرضى، وسببه ما تضمنه من عدم الرضى بالقضاء[٢].

والبلاغة النبوية ــ في هذا المقام ــ كشفت للسامع، المبالغة الشديدة في الزجر والردع ما يجعله يرفض هذه الأفعال حال تعرضه للمصيبة، وعليه أن يتحلى بالصبر والرضا بالقضاء حتى ينال ما وعده ربه تعالى من الرحمة والمغفرة.

ومنها ما جاء في مقام ما ينهى من النوح والبكاء والزجر، فيما رواه البخاري بسنده: عَنْ عَمْرَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتْلُ ابْنِ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرٍ، وَابْنِ رَوَاحَةَ [٣] جَلَسَ يُعْرَفُ فِيهِ الحُزْنُ

١- فيض القدير (٣٨٧/٥).

٢- ينظر: فيض القدير (٣٨٧/٥).

٣- " وحاصل قصة قتل هؤلاء، ما ذكره أهل السير، أن النبي ــ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ــ بعث الحارث بن عمير الأزدي، أحد بني لهب، بكتابه إلى الشام، إلى ملك الروم، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطًا، ثم قدمه، فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ــ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فبعث البعث، واستعمل عليه زيد بن حارثه، وقال: إن أصيب، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة ...". المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود لمحمود محمد خطاب السبكي، تح/أمين محمود محمد خطاب (٢٦٢/٨، ٢٦٣)، ط١،مطبعة الاستقامة، القاهرة (١٣٥١/ ١٣٥٣هـ).

وَأَنَا أَنْظُرُ مِنْ صَائِرِ البَابِ شَقِّ البَابِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، لَمْ يُطِعْنَهُ، فَقَالَ: «انْهَهُنَّ» فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ غَلَبْنَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَزَعَمَتْ أَنَّهُ قَالَ: «فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ» فَقُلْتُ: أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ، لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ تَتْرُكْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ العَنَاءِ" [1].

دل البيان النبوي الشريف على النهي عن البكاء الذي فيه رفع الصوت وفيه نياحة، فحينما مات جعفر بن أبي طالب بكته نساؤه، فأمر رسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أحد الرجال أن ينهاهن[2].

وجاءت الموعظة في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (انْهَهُنَّ) وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ)؛ دلالة على إنكار فعل المخاطب، وأن النساء بلغن الغاية في النواح، فما كان من الرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا أن يعظهم ويرشدهم نحو ترك البكاء المشتمل على النواح وغيره، وقد ظهرت بلاغة الموعظة في توجيه السامع وإرشاده نحو الكف عن النواح واستبداله بالصبر والاسترجاع.

هذا، والبلاغة النبوية حين تهمس إليها تراها توسوس لك في أمر عظيم يذكرك ببيعة النساء اللواتي بايعن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعدم النواح، وكأن نساء جعفر بن أبي طالب نسين هذه البيعة؛ لعظيم ما وصلهن من استشهاد جعفر ــ رضي الله عنه ــ أو أن النساء بفطرتهن يكثرن من النواح على المفقود، فرغم بيعة النساء على عدم النواح إلّا أن اللتي استجبن ووفين بذلك خمس فقط، كما ورد ذلك فيما رواه الإمام مسلم بسنده:" عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ، قَالَتْ: «أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْبَيْعَةِ، أَلَّا نَنُوحَ»، فَمَا وَفَتْ مِنَّا امْرَأَةٌ، إِلَّا خَمْسٌ: أُمُّ سُلَيْمٍ، وَأُمُّ الْعَلَاءِ، وَابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ، امْرَأَةُ مُعَاذٍ، أَوْ ابْنَةُ أَبِي سَبْرَةَ، وَامْرَأَةُ مُعَاذٍ " [3].

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من جلس عند المصيبة يعرف فيه الحزن (٨٢/٢) رقم (١٢٩٩).
٢- ينظر: عمدة القاري (٩٥/٨).
٣- صحيح الإمام مسلم، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (٦٤٥/٢) رقم (٩٣٦).

وبلاغة الموعظة ــ في هذا المقام ــ تدل على المبالغة في الزجر، فلما أمر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الرجل أن ينهى النساء عن فعلهن من النواح فلم يطعنه، ذهب ونهاهن، ثم أتى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقال: نهيتهن فلم يطعنني، يدل عليه قوله في المرة الثالثة: (والله غلبننا) بلفظ جمع المؤنث الغائبة، أي: في عدم الامتثال لقوله؛ لكونه لم يصرح لهن بنهي الشارع، أو حملن الأمر على التنزيه، أو لشدة الحزن لم يستطعن ترك ذلك [١].

فلما لم يستطعن ترك فلعهن من النواح واللطم لعلة ما، أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يرمى في أفوههن التراب؛ ليسد محل النوح فلا يتمكن منهن، وهذا دليل على أنهن رفعن أصواتهن بالبكاء، فلما لم ينتهين، أمره أن يسد أفواههن بذلك، وخص الأفواه بذلك لأنها محل النوح بخلاف الأعين مثلا، وقيل: لم يرد بالأمر حقيقته بل هو بمعنى التعجيز أي: أنهن لا يسكتن إلا بسد أفواههن، ولا يسدها إلا أن تملأ بالتراب، فإن أمكنك فافعل[٢].

وتظهر البلاغة النبوية ــ في هذا المقام ــ في أنه كان في بكائهن زيادة على القدر المباح، بدليل أنه كرره وبالغ فيه وأمر بعقوبتهن إن لم يسكتن، ويؤيد ذلك ما جاء على لسان السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ في قولها للرجل (أرغم الله أنفك) فدعت عليه ــ رضي الله عنها ــ من جنس ما أمر أن يفعله بالنسوة؛ لفهمها من قرائن الحال أنه أحرج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكثرة تردده إليه في ذلك، فكانت الموعظة أداة كشف وتوضيح للسامع؛ لما أراده الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من عدم الجزع حال المصيبة والتحلي بالصبر.

١- ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبي الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري (ت: ١٤١٤هـ)، (٤٩٣/٥)، ط٣، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس الهند (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢- ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤٩٣/٥).

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم به الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد ،،،

فمن خلال دراستي لموضوع البحث، توصلت إلى نتائج من أهمها:

- الموعظة عند الموت كثر فيها استخدام أسلوب الاستفهام، والنهي، والأمر، والنداء؛ حتى يستيقظ المخاطب ويحرك أحاسيسه نحو مراد النبي صلى الله عليه وسلم .

- هناك بعض الأساليب قد ندرت في الموعظة عند الموت، كالتشبيه والكناية، ويبدو أن مقام الضيق والحزن يتطلب الإيضاح والإفصاح أكثر من الطي والخفاء؛ حتى يتنبه السامع ويتعظ لمراده ــ صلى الله علي وسلم ــ في صورة سريعة.

- ظهور علامات تغير الوجه والجوارح عند المتكلم ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الموعظة؛ حتى يستجيب المخاطب ويشاركه في أحاسيسه وشعوره.

- غلب اقتران (إنَّ) بـ (الفاء) في كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ عقب التعبير بجملة النهي والأمر.

- كثر التأكيد بـ (إنَّ) و (اللام) في الأخبار التي تتعلق بالغيب، كعذاب القبر والدار الآخرة؛ حتى يتمكن الخبر في نفس السامع ويبعد عن الشك والوسوسة، كقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ».

- اختار ــ صلى الله عليه وسلم ــ الألفاظ التي تتناسب مع حال المخاطب ومقامه، كاستخدامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأداة النداء (يا) التي يمتد بها الصوت مراعاة لحال أم حارثة الحزينة على فقد ولدها.

- استغلال بعض الأحداث في التعليم والتوجيه لمراده ــ صلى الله عليه وسلم ــ كقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ«إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى" [١] فالصبر الذي يستحق الجزاء من الله تعالى ما كان عند سماع المصيبة من أول وهلة .

- التركيز على بعض الحقائق لترسخ في النفوس، وتثبت في القلوب، وإيضاح بعض المفاهيم والمعاني الغامضة، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة لدى المخاطبين.

- اشتملت الموعظة النبوية على تخفيف ألم المخاطب وتسليته، لما تحمله من تبشيرٍ ومكافأة جزاء لما أصابه من مصيبة الموت، فكانت الموعظة دواء أصاب موضع الداء، فهمها المخاطب ووعاها.

- تمثلت الموعظة النبوية في الكشف عن موضع الداء ووصف الدواء، كما رأيناه ــ صلى الله عليه وسلم ــ في نهي النساء عن النواح، واستبداله بالصبر والاسترجاع.

التوصيات:

- أن يوجه الباحثون جهدهم، ويكشفوا عن سواعدهم حول سنة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأن يبرزوا جمالها الأسلوبي، ولا سيما في الموعظة عند المصيبة؛ حتى يتصبر الناس على من فقدوا، وينالوا رضي خالقهم تعالى.

- إقامة دورات ومؤتمرات تظهر بلاغته ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الحوار مع صاحب المصيبة، وكيفية الإقناع والرضى التي شملت وسيطرت على قلب المخاطب، وجعلته يستجيب لمراده صلى الله عليه وسلم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (٢/٧٩)، رقم (١٢٨٣) .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (جلَّ من أنزله):.
- الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية لزين الدين محمد المناوي القاهري، شرح/عبد القادر الأرناؤوط – طالب عواد، ط، دار ابن كثير دمشق، المكتبة الشاملة موافق للمطبوع.
- اختلاف الحديث (مطبوع ملحقا بالأم للشافعي) لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ط، دار المعرفة، بيروت(١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن عبد الملك القسطلاني، ط٧، الأميرية، مصر،١٣٢٣هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، المشهور بالخطيب القزويني، تح/محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، دار الجيل، بيروت.
- البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد بن علي الإتيوبي الولوي، ط١، دار ابن الجوزي، (١٤٢٦هـ):.
- البيان والتبيين لعمرو بن بحر بن محبوب الشهير بالجاحظ، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت (١٤٢٣هـ):.
- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لإبراهيم بن محمد الحُسَيْني الحنفي الدمشقيّ، تح/سيف الدين الكاتب، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.
- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ.د/ محمد محمد أبو موسى، ط٧، مكتبة وهبة .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تح/ياسين الأيوبي، ط١، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، المكتبة الشاملة موافق للمطبوع.
- سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة دراسة منهجية تأويلية ناقدة، أ. د/ محمود توفيق، ط، مصر.
- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تح/شعيب الأرنؤوط

وآخرون، ط١، دار الرسالة العالمية، بيروت، عام، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

- سنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، تح/أحمد شاكر، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر(١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م).
- السنن الصغرى للنسائي لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تح/عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب،(١٤٠٦ه – ١٩٨٦م).
- شرح سنن أبي داود لأبي محمد محمود بدر الدين العينى، تح/ أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، ط١، مكتبة الرشد/ الرياض (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
- شرح صحيح البخارى لابن بطال، تح/أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد، السعودية (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م).
- صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق (١٤٢٢ه):.
- الصمت وآداب اللسان لأبي بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، تح/أبو إسحاق الحويني، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤١٠ه):.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لمحمد محمود العينى، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، ط، دار المعرفة، بيروت، (١٣٧٩ه):.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير لزين الدين المناوي، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (١٣٥٦ه):.
- كتاب التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تح/جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٣ه/١٩٨٣م).
- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري لمحمد بن يوسف الكرماني،

ط١،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م.

- كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري لمحمد الخضر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، ط٣، دار صادر، بيروت (١٤١٤هـ):.
- مجالس التذكير من حديث البشير النذير لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، ط١، وزارة الشؤون الدينية، تونس، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبي الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري، ط٣، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس الهند (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن (سلطان) الهروي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح/شعيب الأرنؤوط، وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة (١٤٢١هـ /٢٠٠١م).
- مفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر السكاكي، تعليق/ نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
- منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين للدكتور/ مصطفى محمد حلمي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢٦هـ):.
- المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود لمحمود محمد خطاب السبكي، تح/أمين محمود محمد خطاب، ط١، مطبعة الاستقامة، القاهرة (١٣٥١/ ١٣٥٣هـ):.

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـــوع	الصفحة
١-	ملخص	٤٩٦
٢-	Abstract	٤٩٧
٣-	المقدمة	٤٩٨
٤-	التمهيد:	٥٠٢
٥-	المحور الأول: تعريف الموعظة ودورها في البيان النبوي الشريف.	٥٠٢
٦-	المحور الثاني: القيمة البلاغية للموعظة النبوية.	٥٠٦
٧-	المبحث الأول: الموعظة في مقام التنبيه.	٥٠٨
٨-	المبحث الثاني: الموعظة في مقام التبشير.	٥١٩
٩-	المبحث الثالث: الموعظة في مقام الإنكار.	٥٢٧
١٠-	الخاتمة:	٥٣٣
١١-	المصادر والمراجع.	٥٣٤
١٢-	فهرس الموضوعات	٥٣٧